جانب من التظاهرة الكبرى في بيروت عند انطلاقها باتجاه السلطة

# آفاق الحركة الطالبية
## وموقعها من النضال الوطني

بقلم: هيثم كحالة

احد الطلاب محمولا على الاعناق يهتف في المتظاهرين في احد شوارع طرابلس .

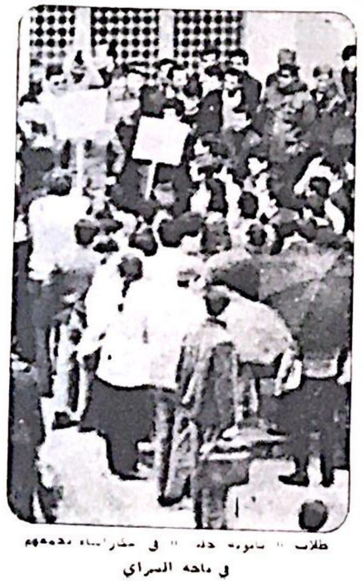

طلاب « ثانوية [illegible] » في تظاهرتهم [illegible] في باحة السراي

### مدخل :

ان بحث طبيعة النضالات الطلابية التي تتفجر كل عام ، ومحاولة اكتشاف جذورها العميقة ، وادراك مغزاها الجوهري ، وأبعادها الحقيقية ، ان كل ذلك يقتضي بالضرورة نوعا من الاستقصاء التاريخي ، ولو بايجاز ، لطبيعة التطورات والتعقيدات والظروف العامة التي أحاطت بالتعليم اللبناني وذلك منذ القرن التاسع عشر وحتى يومنا الراهن .

اذ بدون توفر ذلك لا نستطيع ان نحدد لماذا يشهد لبنان كل سنة نقمة طلابية أوسع نطاقا من السنة الفائتة ، وبدون ذلك ايضا لا نستطيع ان ندحض تلك المزاعم المضللة التي تروج عبر أبواق الرجعية والقائمة أساسا على تشويه مغزى النضال الطلابي وتسخيفه ، وذلك بسرده الى اعتبارات « الشغب » و « الغوغاء » و « الجيل الخامل » والى ما هنالك من مزاعم باطلة يجهد النظام الى تثبيتها في أذهان المواطنين بقصد عزل المسألة التعليمية عن ارتباطها الطبيعي بمجمل التركيب الاقتصادي والسياسي للنظام القائم .

### الارساليات الاجنبية في بلادنا

لقد شهد لبنان في القرن التاسع عشر ازديادا كبيرا لتدفق الارساليات الاجنبية الى بلادنا ودخولها فيما بينها بتنافس حاد .

ولقد تجلى هذا التنافس باوضح مظاهره بين الارساليات البروتستانتية ، والكاثوليكية .

وبالطبع فان هذا التنافس لم يكن منفصلا بأي شكل من الاشكال عن مجرى الصراع العام الذي كان قائما أصلا بين الدول الاوروبية الاستعمارية ، وخاصة بين فرنسا وانكلترا ، من اجل اخضاع لبنان وضمه الى دائرة النفوذ والسيطرة الاجنبية ، في ظروف ظهرت فيها ملامح الشيخوخة والعجز على الاستعمار العثماني ، الذي لم يكن قادرا على مواجهة مخططات المستعمرين الاوروبيين .

ومن هنا فانها كانت موضوعيا وعمليا تخفي من خلالها مطامع استعمارية توسعية ، وتطلعات الى خلق قاعدة اجتماعية تدين بالولاء لهذه القوة الاستعمارية او تلك .

ونحن هنا لن نخوض بالطبع فيما احدثته مثل هذه الارساليات من اسهام في توسيع دائرة القراءة والكتابة في لبنان ، وذلك لان التوقف عند مثل هذه الاعتبارات من شأنه أن يغيب الواقع الاساسية التي كانت تهدف الارساليات الاجنبية الى احتلالها في بلادنا . كما ان ذلك من شأنه ايضا ان يوقعنا في شباك الخدعة الاستعمارية الزاعمة بان وجود هذه الارساليات كان مقترنا بدور « حضاري » و « تمدني » لبلد متخلف مثل لبنان .

صحيح ان وجود هذه الارساليات قد ساعد على تطور القراءة والكتابة ، وصحيح ان وجودها قد عزز اللغة العربية بنوع عام ، الا ان ذلك كان يرمي الى اضعاف تأثير الاستعمار التركي من جهة ، والى خلق نواة من أبناء البلد من أجل خدمة مخططات التوسع الاستعماري الاوروبي بنوع عام والفرنسي بنوع خاص من جهة ثانية .

تتأكد هذه الحقائق ، عندما نشير الى ان تكدس الارساليات الاجنبية في منطقتي جبل لبنان وبيروت لم يكن صدفة ، بل ان ذلك كان يتم وفقا لمخطط استعماري يتخذ من الطائفية ستارا لحجب حقيقته القائمة على اساس تثبيت نفوذ المستعمرين وذلك من خلال عملية اقتسام أسلاب الاستعمار التركي ، والتي كان لبنان جزءا منها .

وفي ظل امتداد وتعاظم تأثيرات الارساليات الاجنبية على بلادنا ثقافيا واقتصاديا وسياسيا واجتماعيا . كانت الثقافة الوطنية اللبنانية مشلولة عن القيام بأي دور تقدمي او وطني يهيء لها الصمود أمام الهجمة الثقافية الاستعمارية .

ومن هنا فان الاستعمار الثقافي الممثل بهذه الارساليات لم يجد عمليا أي مقاومة ، ولم يجابه بأي اعتراض جوهري بحكم ضعف الثقافة الوطنية آنئذ ومحدودية أفقها .

وهكذا ترسخ النفوذ الاستعماري ، وازدهرت مواقعه الثقافية أكثر فأكثر بقيام التعليم العالي ونشوئه في ظل الارساليات الاجنبية .

ان ظهور التعليم العالي في لبنان كان يعني استمرارا للصراع الذي كان قائما أصلا بين تلك الارساليات .

ولقد تجسد بدء هذا الصراع منذ عام ١٨٦٠ ، أي على اثر الاحداث الدامية التي تفجرت في لبنان والتي كانت توقدها وتحركها أصلا تناقضات المستعمرين فيما بينهم على ضم لبنان واخضاعه .

ومن هنا بالضبط كان انشاء الكلية البروتستانتية السورية عام ١٨٦٣ . ومن هنا ايضا كانت تتطور وفقا للمخطط الذي انشئت من اجله ، هذا المخطط تكشف عنه بصراحة بعثة التعليم الاميركي التي زارت لبنان بعد الاستقلال والتي تقول في تقريرها المنشور تحت عنوان « التربية في الشرق الاوسط » ما يلي :

« لقد شعرت الرسالة المشيخية الامركية بالحاجة الى انشاء كلية لاعداد الناشئين لتولي الزعامة في حياة سوريا والشرق الادنى ، وتنفيذا لهذه الفكرة عهدت الى احد أعضائها البارزين وهو الدكتور دانيل بلس تمهيد السبيل لتأسيس كلية امركية. وبعد استنهاض الهمم في انكلترا وسكوتلندا وامركا تمكن الدكتور بلس من افتتاح اولى فصول الكلية في عام ١٨٦٦ بعد أن افتتحت فيها فصول اعدادية سنة ١٨٦٣ وسميت الكلية البروتستانتية السورية » .

يتضح من هذه الفقرة بشكل جلي مدى اهتمام المستعمرين بالمسألة الثقافية والتعليمية في لبنان بوصفها تشكل تمهيدا مباشرا للسيطرة الاقتصادية والسياسية . كما يتضح من خلالها عمق الصراع الذي كان قائما بين انكلترا وفرنسا بنوع خاص من أجل اخضاع لبنان ايديولوجيا لخلق مقدمات اخضاعه الاقتصادي والسياسي .

تقول دراسة وضعها « دومنيك شيفاليه » ونقلها الى العربية الاستاذ اكرم الرافعي ما يلي : « تحت تأثير المبشرين ، الذين اقبلوا من فرنسا وايطاليا وخاصة اليسوعيين . فقد أوصى هؤلاء الى الجماعات الرهبانية « البلدية » بقواعد في تنظيم الاديرة أتاحت لها ( أي الجماعات ) أن تنشط بعض النواحي الثقافية ، وان تملك على وجه الخصوص استثمارات زراعية حول الاديرة وتستغلها » .

ان الدراسة تشير هنا الى الدور الذي لعبه المبشرون منذ القرن السابع عشر ، بحيث تتضح منذ تلك الفترة بدايات تطلع المستعمرين الاوروبيين نحو تعزيز مواقعهم الاقتصادية والسياسية من خلال التستر بستار الكهنوت التبشيري .

وتضيف الدراسة : « وزيادة على هذا ، فان الاقلية المارونية كانت وهي تحصن وجودها في العالم الاسلامي ، تنفتح على الدول المسيحية في مجال العلاقات الاقتصادية والدينية ؛ واذن فقد كانت البيئة مؤاتية ، وكان من شأن التأثير الذي أحدثه المبشرون الاوروبيون في الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية للاديرة ، كان من شأنه ان يشجع اقبال هؤلاء السكان المسيحيين على التيارات المخلفة من الغرب » .

على ضوء هذه الحقائق والوقائع يتضح امامنا بجلاء ان دور المبشرين الاوروبيين كان يتجه بالدرجة الرئيسية الى تعزيز سلطان الدين على الناس لانه بواسطته تهيأ الفرصة لفرض زعامات دينية تحتوي الزعامات الاقطاعية او تضعف من نفوذها ، وبالتالي يكون بوسع هؤلاء المبشرين ان يفرسوا الايديولوجية الغربية وخاصة الفرنسية كأساس تبنى عليه السيطرة الاقتصادية والسياسية .

ويتضح ذلك من خلال الهيمنة شبه الكاملة على مساحات شاسعة من الارض الصالحة لزراعة وخاصة المخصصة لزراعة شجر التوت اذ ان هذه السيطرة تجلت باوضح مظاهرها في العقد الخامس من القرن التاسع عشر .

تؤكد نفس الدراسة السابقة « ان جوع الصناعة الليونية ( نسبة الى مدينة ليون الفرنسية ) للحرير الذي تزايد في ظل « ملكية تموز » دفعهم ( اي أصحاب المعامل الخاصة في انتاج الحرير ) الى تمويل منشآت الغزل القائمة في مناطق ( جبل لبنان ) ليحصلوا باستمرار على منتجات جيدة ، ويستفيدوا من يد عاملة فلاحية أجورها منخفضة جدا ، واول غزالة فرنسية انشئت عام ١٨٤٥ في بتاتر الشوف وانشأها نيقولا بورتاليس الذي كانت تدعمه اعتمادات بنك ليون « برجنس ومينو » والذي اصطحب معه مشرفات من معامل بـ « لادورم » . هذه المنشآت العصرية كانت تتطلب مواد خاما اكثر من الورش البدوية المحلية » .

وتضيف الدراسة بان مثل هذه المنشآت « قد أقيمت في مناطق يتراوح ارتفاعها بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ متر على مستوى الصخور الرملية من المنطقة الطباشرية حيث يوجد الماء الصافية ويتوفر الوقود من خشب الصنوبر والعرعر « اللينيت » الحجري وهو ما تحتاج اليه لتأمين عملها ، وهذه الظروف الجيولوجية اللائقة كانت محققة في منطقتي الشوف والمتن اللتين يسهل لهما قربهما من بيروت الاتصال بالمرفأ » .

واضح تماما أنه عندما أشرنا في بداية البحث الى مسألة تكدس الارساليات الاجنبية في الجبل وبيروت فاننا كنا نقصد ما لهاتين المنطقتين من مزايا اقتصادية وتجارية ، مع عدم الاهمال بالطبع لمسألة الولاء الطائفي التي اتخذت مبررا او بمعنى أدق وسيلة للتغلغل الاقتصادي والسياسي فيما بعد .

ان تطور صناعة الحرير في لبنان ، قد أدى الى تعميق الارتباط بالصناعة الفرنسية والتجارة الفرنسية مما ثبت النفوذ الفرنسي ، الاقتصادي والسياسي بشكل أكثر متانة وقوة من السابق .

واذا كانت فرنسا تمثل القوة الاستعمارية الاوسع نفوذا في لبنان ، الا ان هذا لا يعني ان القوى الاستعمارية الاخرى لم تكن تفكر في توفير مواطىء نفوذ اقتصادي وسياسي لها .

بل العكس هو الصحيح تماما . وهذا ما كنا قد أشرنا اليه لماما في الكلام السابق .

ومن هنا فان هذا الصراع كان في معظم الاحيان يشتد بين القوى الاستعمارية المتنافسة على ضم لبنان واخضاعه لدائرة هيمنتها ونفوذها على اثر ضعف الاستعمار العثماني .

ولقد تجلى هذا الصراع على الصعيد الايديولوجي بانشاء « الكلية البروتستانتية السورية » والتي أنشئت كرد فعل لها جامعة « القديس يوسف » من خلال ارسالية الآباء اليسوعيين وذلك عام ١٨٧٥ .

وكان الغرض من انشائها كما يحدث التقرير الاميركي الذي تقدم ذكره آنفا هو « اعداد من يتولون الزعامة بين مسيحيي لبنان من جهة ، ومناهضة الكلية البروتستانتية من جهة ثانية » .

وهكذا يتضح أن الغرض من انشاء الجامعتين – كما يؤكد التقرير – هو واحد . وهذا ما يفسر بجلاء الاهداف الكامنة وراء انشائهما .

وهنا لا بد من الاشارة الى الفروقات التي كانت قائمة بين طبيعة المناهج والفروع في كلتا هاتين الجامعتين . وهذه الفروقات ناجمة بالطبع عن الاختلاف بين مخططات القوتين الاستعماريتين الكبريين آنئذ : فرنسا وانكلترا .

فبينما كانت جامعة القديس يوسف تركز على اعداد مهندسين ، وأطباء ، وحقوقيين ، وصيادلة ليتولوا الزعامة السياسية في لبنان . كانت انكلترا ومن خلال خططها الاقتصادية السياسية العامة للسيطرة على الوطن العربي تنظر الى التركيز على العلوم الانسانية في الكلية البروتستانتية مثل : التاريخ – الادب – الفلسفة – الاجتماع .. الخ ، وذلك لما تلعبه مثل هذه الفروع من دور هام في تكوين الايديولوجية التي تخدم المخططات البريطانية وتساعد على تنفيذها ، وذلك لان العقبة الاساسية التي كانت تعترض هذه المخططات تجسد فيما كانت تحتله فرنسا من مكانة في لبنان نتيجة لامتيازاتها الاقتصادية، والسياسية، والطائفية ، والتاريخية ، والتي كانت مفروضة فرضا على الاستعمار العثماني .

### بذور الوعي الوطني في لبنان

ان الارساليات الاجنبية – خاصة على مستوى التعليم العالي – في اطار تنافسها وتصارعها كانت تركز دائما على الحساسية الطائفية وتستخدمها باستمرار لخدمة مخططاتها ، مما دفع البعض من الادباء والشعراء والمفكرين الوطنيين الى نبذ ما كانت تروجه هذه المؤسسات من أفكار طائفية وثقافة استعمارية ، والى فضح مراميها وما تعكسه هذه المرامي من ويلات على أبناء البلد الواحد .

ولقد تجلى هذا الحس الوطني ( وان كان في طوره الجنيني آنذاك ) في أفكار بطرس البستاني الذي انشأ مدرسة وطنية ضمت مدرسين من مختلف الطوائف اللبنانية . وفي أفكار يعقوب صروف وجرجي زيدان وفارس نمر ، وابراهيم اليازجي .

ان أمثال هؤلاء الادباء الوطنيين اهتموا اهتماما واسعا في ابراز الشخصية العربية وذلك من خلال اهتمامهم باللغة العربية وتطويرها ، وجعلها قادرة على الصمود في وجه اللغات الاجنبية الغازية .

ولقد حرص هؤلاء على نشر ثقافة وطنية تكون بديلا للثقافة الاستعمارية والطائفية .

وفي هذا المجال لا بد من الاشارة الى الدور الطليعي الذي مارسه شبلي الشميل الذي كان يطالب بتدريس « نظرية داروين » عن التطور في الكلية البروتستانتية .

ان مطالبة الشميل بتدريس هذه النظرية يعني في أبرز دلالاتها رفضه للشعوذة الفكرية والثقافية التي كانت سائدة في مناهج التعليم العالي ، كما تؤكد الوجه التقدمي الطليعي لهذا المفكر ( المهمل اهمالا كليا في مناهج التعليم السائدة حتى الان ) .

ان مجمل هؤلاء الادباء والمثقفين الذين كانوا يملكون تطلعات ثقافية وطنية ، بحكم ادراكهم لخطر انتشار السموم الطائفية التي كانت تبثها المؤسسات الثقافية الاستعمارية كانوا في الواقع يشكلون البذور الجنينية للثقافة الوطنية آخذين بعين الاعتبار الفوارق النسبية لخلفية كل منهم ولنظرته وآرائه العامة .

ان هؤلاء ، وعلى الرغم من الدور الوطني الطليعي الذي مارسوه ، وعلى الرغم من آثارهم التي أنتجوها ، لم يكن بمقدورهم ان يشكلوا حاجزا صلبا في وجه الثقافة الاستعمارية ، ولم يكن بوسعهم ان يمنعوا تأثيراتها المتعددة على تكوين وتوجيه المجتمع اللبناني ايديولوجيا وثقافيا . وذلك لما كانت تملكه الارساليات الاجنبية من طاقات اقتصادية وسياسية وثقافية وطائفية .

وهنا لا بد من الاشارة الى ان الارساليات كانت متنبهة لخطر أفكار هؤلاء الطليعيين . لذا عمدت الى محاربتهم والى تشويه وتسخيف وطمس آثارهم ، حتى انها قد حرمت قراءة قسم منها . ( على سبيل المثال حرمت قراءة كتب جبران خليل جبران التي كانت تحمل في طياتها نقمة على الاكليروس وعلى الاضطهاد الذي يمارسه رجل الدين المتحالف مع الاقطاعي ضد عامة الشعب ) .

ان الصرخات الثائرة التي تجسدت في كتابات جبران وامثاله ، وان كافة الافكار والاراء الوطنية التي تجسدت في مؤلفات الادباء الوطنيين الذين سبق ان ذكرنا عددا منهم لا تشكل بالطبع ثقافة وطنية متكاملة ، كما انها لا تشكل خطا فكريا واحدا ، بقدر ما هي البذور الاولى في تربة الثقافة الوطنية ، وردود فعل متفاوتة من حيث الحجم والتأثير للثقافة الطائفية الاستعمارية التي كانت تنشرها الارساليات في بلادنا . كما هي بشكل او بآخر من نتاج التفاعل والتأثر بالافكار التقدمية في العالم .

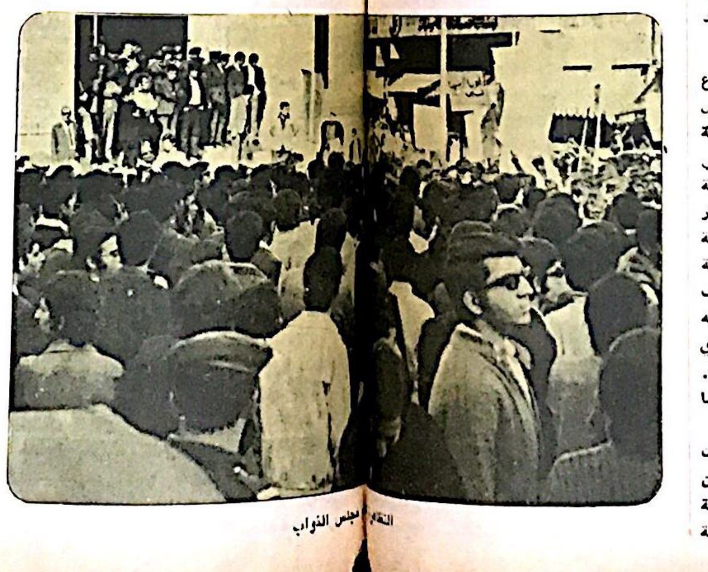

التظاهرة امام مجلس النواب

### الوضع التعليمي في ظل الانتداب الفرنسي

بانتهاء الحرب العالمية الاولى ، وخضوع لبنان للاستعمار الفرنسي ( وفقا لمعاهدة سايكس – بيكو ) سعت فرنسا الى تثبيت امتيازاتها ومواقعها الاقتصادية والسياسية والثقافية في لبنان ، مستفيدة بالطبع من امتيازاتها التي كانت قائمة أصلا في الفترة التاريخية التي سبقت الانتداب .

ومن هنا فان « جامعة القديس يوسف » ( اليسوعية ) قد كشفت عن حقيقتها كمؤسسة استعمارية تقوم في أساس وجودها على تخريج واعداد الزعماء والموظفين الكبار من أبناء طبقتي البورجوازية والاقطاع كأدوات محلية لازمة لدولة الانتداب وتعمل في خدمتها .

وعلى هذا الاساس انحصر التعليم الجامعي في ظل الاستعمار الفرنسي بأبناء الطبقات الغنية . وهذا ليس أمرا منفصلا عن سياسة الاستعمار الفرنسي الهادفة الى حرمان الطبقات الشعبية الفقيرة من كل ما من شأنه ان ينمي قدراتها ، ويسهم في تعزيز مكانتها الاقتصادية او السياسية او الثقافية .

ان هذه الحقيقة تؤكد بجلاء عمق الترابط القائم بين مصالح المستعمرين ومصالح البورجوازية العميلة والاقطاع .

وفي اطار الجامعة اليسوعية كان التوجيه الثقافي محددا بالتركيز على ما يلي :

١ – ان لبنان جزء من فرنسا (!)
٢ – اماتة اللغة العربية .
٣ – تشويه الاثار التقدمية في الادب العربي .
٤ – تعميق الايديولوجية الفرنسية الاستعمارية وتخريج كوادر مطبوعة بها .
٥ – تعزيز الطائفية .

وواضح من هذه النقاط التي كانت تشكل العناوين العريضة للمخطط الاستعماري الثقافي الفرنسي ، ان الهدف الرئيسي الكامن وراءها تذويب وطمس الشخصية العربية واعداد كادرات للحكم تدين بالخضوع التام ، والولاء المطلق للاستعمار الفرنسي .

ان الهجمة الثقافية الاستعمارية لم تقتصر على الجامعة اليسوعية وحدها ، بل ان الكلية السورية البروتستانتية ايضا كانت جزء منها ، وذلك لان الاستعمار البريطاني والاستعمار الاميركي الجديد كانا يتطلعان ايضا الى ايجاد مواطىء ومواقع استعمارية لهما في لبنان .

ومن هنا فان الكلية السورية البروتستانتية قد شهدت تطورا يتناسب مع الظروف والتطورات الجديدة الناجمة عن الحرب الاولى ، وعن وقوع لبنان في دائرة النفوذ الفرنسي .

لذلك عدل في وضع هذه الكلية ودخلت مباشرة تحت السيطرة الثقافية الامركية في عام ١٩٢٠ حيث بدل اسمها وأصبحت تدعى ( الجامعة الامركية ) . كما دمجت بها ( الكلية الدولية ) عام ١٩٣٦ التي نقلت من أزمير في تركيا .

وهكذا تحولت الجامعة الامركية الى وكر من أوكار الاستعمار الثقافي والايديولوجي في بلادنا. وأصبحت بموجب هذا التحول منسجمة مع المطامع الاستعمارية الامركية التي بدأت في التغلغل مستترة بشعارات « الحرية » ومظاهرة بالحماس لفكرة « القومية العربية » .

ان الجامعة الامركية في خططها العامة كانت تختلف عن الجامعة اليسوعية ، اذ ان مناهجها كانت ذات طابع عملي أكثر مما هو قائم في ( اليسوعية ) وذلك من أجل اعداد كادرات من الفنيين الاخصائيين القادرين على العمل في الشركات والمؤسسات الاقتصادية الامركية .

ولما كانت اللغة الفرنسية شرطا اساسيا من شروط الوصول الى المناصب والمراكز الادارية عمدت الجامعة الامركية الى انشاء قسم ثانوي يتبع المنهج الفرنسي من أجل اتاحة الفرصة لعدد من أبناء البورجوازيين كي يصلوا الى اجهزة الدولة الادارية مع المحافظة على ولائهم للثقافة الامركية ، والمصالح الامركية .

هذا على المستوى الجامعي ، اما على صعيد التعليم الثانوي والمتوسط ( التكميلي ) فاننا نلحظ المسألة اياها التي سبق وأوضحناها من قبل في سياق الحديث عن طبيعة التعليم الجامعي وعن الطبقات التي كان متجها اليها ومحصورا ضمنها .

ان الطبقات الشعبية الفقيرة قد حرمت ايضا من فرص التعليم الثانوي ، وذلك لان الانتداب الفرنسي كان يهدف من البرامج التي حددها لهذه المرحلة الى تخريج دفعات او « ارتال » من الموظفين الذين يجيدون اللغة الفرنسية ، والذين يفكرون في اطار الثقافة الفرنسية الاستعمارية ويعملون على تكريسها ونشرها . ومن هنا فان التعليم الثانوي في ظل الاستعمار الفرنسي قد انحصر بطابعه الاغلب والاعم بأبناء البورجوازية الكبيرة والمتوسطة القادرين على الالتحاق بهذه المرحلة وعلى تحمل نفقاتها .

وفي هذا الصدد لا بد من الاشارة الى ان المدارس الثانوية كانت باكثريتها الساحقة منحصرة في اطار الارساليات والمدارس الخاصة وأكثرها طائفية ( اكليركية ) .

وواضح تماما ان الهدف من وراء عملية الحصر هذه تخريج فئات اجتماعية وعناصر محلية مكونة ايديولوجيا بما يوافق المصالح والامتيازات الاستعمارية ويكرس نفوذها وهيمنتها . ( تفيد الاحصاءات بهذا الشأن ان عدد المدارس الثانوية في لبنان ابان الانتداب قد بلغ ٣٢٦ مدرسة من أصلها ٢٧٣ مدرسة فرنسية ، و ٣٦ مدرسة امركية ، و ١٤ مدرسة بريطانية ) .

( في العدد القادم نستكمل تطور نظام التعليم اللبناني وطبيعة النضالات الطالبية وموقعها من النضال الوطني العام )